لأنك آلِيت

شعر: د . حيدر الغدير
السعودية

بيانك باقٍ بقاء الزمان ... يوشّيه من كل فن بنانْ
إذا أنت أدمنته تستزيد ... ويزداد حسنا ولا تسأمانْ
فتغدو نضارته كالصباح ... وتغدو وسامته كالجِنانْ
سيبقى بقاء السما والسنا ... وما امتدت الضاد عبر المكانْ
وما طاب في الأيك نفح الشذا ... وما طاب للعربي البيانْ

* * *

بيانك وهو السريّ الوضي ... هزار يغني وأنشودتانْ[1]
وأفراح روض سقاه الحيا ... وعينان بالشهد نضاختانْ
يجدده روحك العبقري ... وأنك والمشتري توأمانْ
وأن البلاغة آلت إليك ... فكنت بها درة المهرجانْ
ولِمْ لا وأنت الذكي الذي ... رأى في التراث الغوالي الهِجانْ
سهرت عليه وأدمنته ... فأهداك منها الوضاء الحسانْ
وجئت الكتاب فأسكنته ... حنايا ك تتلوه في كل آنْ
وتنسج من آيه الباهرات ... برود اً كحسن الصبايا لِدانْ
كأن عليها رواء الكتاب ... وأقباسه وامتداد الأذانْ[2]

* * *

سيبقى بيانك ملء الزمان ... وملء الجَنان وملء المكانْ
عليه الجلال وفيه الجمال ... ربيعا محاسنه أُضْحيانْ
يحدث عن حسنه المشرقان ... ويروي جلالته المغربانْ
ويفنى البيان الدعيُّ الدخيل ... كما فني الآل في الصحصحانْ
ويدفن في ثوبه المستعار ... وأكفانه شؤمه واللِّعانْ
سلاحك في الغاشيات الثبات ... وعزم تطاول - كالسنديانْ
وأنك آليت ألا تهي ... وألا تخاف الخطوب العَوانْ
وأنك من فاز لما اشترى ... فغنّى: ربحتُ ونلت الأمانْ
وأشواقك الأمنيات الوضاء ... وعيناك من فرحة تهميانْ
وأوقدت من أصغريك الشموع ... لتهدي البلاد وتحمي الكيانْ
وأحكمت من كل سطر قناة ... وأسرجت من كل حرف حصانْ
تنام ولكن كحسو القطا ... وقلبك في يقظة الديدبانْ
دؤوبا كجدك في كده ... وأنت المعين وأنت المعانْ[٣]
ومنه استقيت نبيل الخصال ... إذا اشتد في أمره أو ألانْ

* * *

نجيَّ الدراري وتربَ الخلود ... لقد كنت حسّان هذا الزمانْ[٤]
ستبقى لأمتنا مشعلا ... وتبقى لها في الغواشي كنانْ
وتبقى بأعراسها فرحة ... وفيها البشائر جذلى حوانْ
وتبقى لها بسمة في الثغور ... وضَوْعة مسك ورجع أغانْ
ومهرا قوائمه في السحاب ... تأبّى على كبوة أو حرانْ
مداه الرياح بكل المظان ... ويعدو ليبلغ أقصى المظانْ

* * *

وأشهد كنت الجريء الجسور ... ويشهد لي النجم والعاقبانْ
تقاتل عن حرمة المسلمين ... وعيناك في غضبةٍ جمرتانْ[٥]
وكفاك في صولة تفريان ... ولا تهدآن وسيفك قانْ
تقول أصاول عن أمتي ... وفي خلدي تسكن الحسنيانْ

وعن لغة الضاد وهي المدى ... وعن مجد أهلي وهو الرعانْ
وعن طيبة مأزر المؤمنين ... ومكة وهي الهدى منذ كانْ
وعما بنى الفاتحون العظام ... وشاد الخلائفُ عبر الزمانْ
وتحرس دينك من جاهل ... وآخر مانَ، وآخر خانْ
ومستشرق مغرق في العداء ... ومستغربٍ واغلٍ أو جبانْ
ومن منكر الشمس في رأدها ... ويزعم أن سناها دخانْ
ومن بائع للعدا قومه ... وسيف أبيه الصؤول اليمانْ

* * *

أصم وتسمع كيد الحواة ... وما قال في الخلوة الألعبانْ[٦]
وما أحكموه من الشائنات ... وما بهرجوا وهو سامٌ وارنْ
فتفجؤهم فاضحا كيدهم ... فتغدو سخائمهم في العِلانْ
فإن سألوا: كيف صار الأصم ... عليما وأذناه لاتسمعانْ
تقول لهم: إن سمعي الرؤى ... وعقلي وقلبيَ لا يكذبانْ
وفي البصيرة مثل الضحى ... سمعت بها والليالي دِجانْ

* * *

سألتُ العروبة في خلوتي ... من الرافعيُّ وأنت الرزانْ
وأنت الفضائل والمكرمات ... وأنت الذكاء وأنت الحصانْ
وأنت مهاد البيان الأصيل ... وأنت له منذ كان الخُوانْ؟!
فقالت : هو الألمعي الذي ... أجاد وساد ونال الرهانْ
وإني له ظئره والِلّبان ... وإني له خمره والدنانْ
فقلت: صدقتِ، وأمجاده ... لها حيث تسري جمال وشانْ
ويشهد لي الضاد والمبدعون ... سرياً كما كنتِ والفرقدانْ

الهوامش :

(١) هما الشعر والنثر.

(٢) وصف سعد زغلول بيان الرافعي بأنه : « بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم».

(٣) ينتهي نسب الرافعي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) وظف الرافعي بيانه للدفاع عن الإسلام كما فعل حسان بن ثابت رضي الله عنه.

(٥) عاش الرافعي وهو يشعر أنه أحد المطالبين دائما بحراسة الدين والأمة واللغة.

(٦) ضعف سمع الرافعي حتى انتهى إلى الصمم التام.